المستطاب من اخبار القبقاب

في دمشق ومصر

بقلم الاديب حبيب زيات

اشتهر القبقاب في دمشق خصوصاً ومصر. واكثر ما كان يُصنع في دمشق، ويُجلب منها الى مصر، ولذلك عدّه البدري في جملة القافلات التي تُحمل من دمشق للديار المصرية[1]، وذكر «تفصيل القبقاب» من الصناعات التي عُرفت في زمانه في عاصمة الامويين ولم يستقص في تعدادها. ولا تزال الى اليوم احدى اسواقها مشهورة «بالقباقبية»، وراء الجامع الاموي، لاجتماع صنّاع القباقيب فيها. وهم يتخذونها في الغالب من خشب مدهون من شجر الجوز والمشمش والتوت والصفصاف والزان، مطعّم بالاصداف والاسلاك من القصدير او الرصاص. وربما كان التطعيم احياناً قليلة بالعظم. واختُص قوم بالتفصيل، وآخرون بالتطعيم. وفي سنة ١٩١٣ كان عدد المشتغلين بالقبقاب مائتين وخمسين رجلًا، كان يجهّز كل منهم في يومه عشرة ازواج تقريباً، بلغ ثمن الزوج عامئذٍ من ثلاثة الى ثمانية واربعين غرشاً دمشقياً، حسب جنسه وتطعيمه وسَيْره. والسيور اما ساذجة واما مزركشة، على اختلاف في الرخص والغلاء.

وغاية ما كان ارتفاع القبقاب شبراً، او نحواً من ثلث ذراع، وهو المعروف «بالشبراوي». ودونه «العكاوي»، ولعله سُمّي كذلك لانه كان يصنع قبلًا في عكّا. ثم «الكُندرة» ثم «الزحّافي» وقيل له احياناً «الجركسي» او «المهاجر» لاتخاذ الجراكسة له المهاجرين في الصالحية. وهو اقلّه ارتفاعاً، ولذلك عُرف قديماً في مصر «بالزحاف» لقربه من الارض. وقد ورد ذكر له في ترجمة قاضي القضاة زين الدين التفهني الحنفي من اهل القرن الثامن للهجرة. قال تقيّ الدين المقريزي: «وواقعته مع الميموني مشهورة من حكمه بسفك دمه. وعُقد بسبب ذلك مجالس والميموني يحاججه عن نفسه ويقول له اتّقِ الله يا عبد الرحمن. أنسيت قبقابك الزحّاف وعُمَيّتك القطن.»[2] وكان هذا النوع

١) تحفة الانام، ص ٢٦٤ ٢) المنهل الصافي: باريس ٢٠٧١، ج ٤، ص ٤٥

في الغالب نعل المُعسرين والفقراء ، وحذاء من خانهم الدهر من الاغنياء والعظماء. واشهر من احتذاه في الشرق الخليفة الفاطمي المستنصر بعد ان خرج من جميع ما يملكه في القصر . حكى ابن ميسّر انه « لمّا كان في شعبان (سنة ٤٦٤) قدم ناصر الدولة (ابن حمدان) الى مصر وحكم فيها وسيّر الى المستنصر يطلب منه المال . فقدم اليه الرسول فاذا هو جالس على حصير وفي رجله قبقاب من خشب ابيض من غير دهان ولا سير . وحوله ثلاثة من الخدم.»[1]

واكثر ما كان يُلبس هذا القبقاب في السدور المفروشة بالرخام والحجر ، وفي الاسواق في ايام الشتاء خصوصاً . ولذلك قال ابو الحسين الجزّار :

لئن قطع الغيثُ الطريقَ ، فبقابي ، وحاشاك ، قبقابي ؛ وجوختي الدار (٢

ولا شك انه كان بالاجمال يُصنع على صورة ملائمة تمكّن الرجل من الجري به . فقد حكى ابو شامة في ترجمة الشيخ ابي عمر ، شيخ الصالحية والمقادسة المتوفى سنة ٦٠٧ ، انه « كان يصعد يوم الاثنين والخميس الى مغارة الدم (في جبل قاسيون بدمشق) ماشياً بالقبقاب فيصلي فيها ما بين الظهر والعصر . »[2] وروى ايضاً في ترجمة الشيخ الشهاب محمد بن خلف بن راجح المقدسي ، احد شيوخ الصالحيين المتوفى سنة ٦١٨ بسفح جبل قاسيون قال : « قال ابو المظفر كان سليم الصدر من الأبدال ما خالف احداً قط . رايته يوماً وقد خرج من جامع الجبل فقال له انسان : ما تروح الى بعلبك ؟ فقال له : بلى . فمشى من ساعته الى بعلبك بالقبقاب[3] . »

وقد جرّ السخف بعض متعلي القبقاب الى المبالغة في اعلانه حبّاً بالظهور والعظمة . ونُقل عن رمضان فتح الدين المنوفي ، نزيل حلب من اهل القرن العاشر ، انه « كان مشهوراً بالميل الى العظيم من كل شيء . وكانت عمامته عظمى . واكمامه في غاية الاتساع . وجبّته المصقولة في غاية الصقالة . وقبقابه في غاية الارتفاع.»[5] وكذلك كان بعض القصار يُطيلون قامتهم بطول قبقابهم.

١) تاريخه ، ص ٢١ ٢) فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٦٨
٣) ذيل الروضتين ؛ باريس ٥٨٥٢ ، ص ٧٦-٧٧ ٤) ذيل الروضتين ، ص ١٤٣
٥) در الحبب في تاريخ اعيان حلب لرفي الدين ابن الحنبلي ؛ باريس ٢١٤٠ ، ص ٦٠-٦١

حكى العقاعي عن الحسام اقوش المؤذن ، من صلحاء القرن السابع ، انه « كان قصيراً وعُمل له قبقاب عالٍ جدًّا ليرفعه عن الارض كان يطلع به جرياً في سلالم كل مأذنة . واعتاد ذلك .»[1]

وقد تقدم القول ان القبقاب اغلب ما كان يكون من الخشب . ومن اظرف ما كان يُنقش عليه من الشعر بيتان لاقوش البيسري :

كنت غصناً بين الرياض رطيباً مائل القدّ من غناء الحمام
صرتُ احكي عداك في الذل اذ صرْ ـ ـ تُ مهاناً أداس بالاقدام[2]

ويظهر انه اصطُنع بعض الاحيان من الرخام لثقله ، ليلبسه المتسابقون في العوم والسباحة[3] . واتخذه اهل الثروة والبذخ من الذهب المرصع بالجواهر . قال المقريزي في كلامه عن الملك الناصر محمد بن قلاوون : « استجدّ النساء في ايامه ... القباقيب الذهب المرصعة بالجوهر »[4] ولما ماتت ابنة الناصر خوند زوجة الامير طاز « تركت مالاً عظيماً ... من جملته قبقاب مرصّع باربعين الف درهم . عنهما الفا دينار مصرية »[5] وفي سنة ٧٧٤ قدم الامير منجك نائب الشام الى مصر ، وكان في جملة هديته للسلطان « ثلاثة قباقيب نسائية من ذهب فيها اثنان مرصعان بالجوهر قيمتها مائة وخمسون الف درهم عنهما نحو ثمانية آلاف مثقال من الذهب »[6] . وهو غاية ما يكون من الإتلاف والترف .

ومن اغرب ما استعمل فيه القبقاب تسيير اللصوص عليه ، وقتل القتلة به تشفياً في العقاب ، « ففي خامس عشر ربيع الاول سنة ٧٨٨ سُمّر من رجال المنبر ثمانية عشر على جمال . وثلاثة سُمّرت ايديهم في الخشب وأُلبسوا في ارجلهم قباقيب خشب ثم سمرت ارجلهم فيها . وأُركبوا حتى مشوا وهم مسمّرون كذلك وشُهّروا جميعاً بالقاهرة »[7] قال ابن قاضي شهبه : ولم يسمع

١) تالي كتاب وفيات الاعيان ، باريس ٢٠٦١ ، ص ٨٥

٢) نسب البدري هذين البيتين لابن هانئ الاندلسي (نزهة الانام ، ص ٣٦٣) والصحيح انهما لاقوش البيسري كما ذكره ابن تغري بردي ، وابن حجر في الدرر

٣) الروض الباسم لعبد الباسط ابن خليل الحنفي ، الفاتيكان ٧٢٨ ، ص ٤٧

٤) السلوك ، باريس ١٧٢٦ ، ص ٤٩٧

٥) السلوك ، ص ٦٠٣

٦) السلوك ؛ باريس ١٧٢٧ ، ص ٧٤ ٧) الكتاب المذكور ، ص ١٥٤

بمثل ذلك[١] . وفي سنة ٦٥٥ توفي السلطان المعزّ ايبك التركماني وكان قد تزوج بشجر الدر حظيّة استاذه الملك الصالح ، ثم ارسل خطب ابنة صاحب الموصل. فلمّا تحققت شجر الدر ذلك أغرت بـه الخدام في الحمام ، وجعلت الجواري ترفسه ، وشجر الدر تضربه بالقبقاب الى ان مات[٢] ثم أقيم من بعده ابنه الملك المنصور نور الدين علي ، فحملت شجر الدر الى أمه ، فضربها الجواري بالقباقيب حذوَ النعل بالنعل الى ان ماتت[٣] . وما عتمت هذه العادة الفظيعة ان اصبحت سُنّةً للنساء وورثاماً . ولما فتك نصر بن عباس بالخليفة الظافر ، ووقـع بعد هربه بين ايدي الفرنج ، بعث الملك الصالح طلائع بن رزّيك بطلبـه منهم وبذل لهم اموالاً . « ولما وصل سلمه الى نساء الظافر فاقمن يضربنه بالقباقيب والزرابيل اياماً وقطعن لحمه واطعمنه اياه الى ان مات . ثم صُلب.»[٤] وكذلك فعل الملك الظاهر بالملك المغيث ابن الملك العادل لما وصل اليـه في مخيّمه في بيسان ، « امسكه وجهّزه الى مصر وكان آخر العهد به . وقيل انـه جهّزه الى امرأته فضربته جواريها بالقباقيب الى ان مات.»[٥]

وآخر ما خُتم به تاريخ القبقاب انه دخل في ادوات التعزير ، فكان يُعلّق في عنق المُشهّرين . ففي سنة ٨٥٣ « عُزّر شخص اسشاطي وطيف به على حمار وفي عنقه قبقاب.»[٦] وفي هذا المعنى وضع امين الدين الدمشقي الصالحي الهلالي المتوفى سنة ١٠٠٤ جزءاً في هجاء بني الخطاب الـذين كانوا قضاة مالكية في دمشق سمّاه « قرع القبقاب في قرعـة بني الخطاب » وفيه كل عجيبة وكل مسبّة غريبة[٧].

بنيك (فرنسة) ٢٤ آب سنة ١٩٣٩

---

١) الذيل ، باريس ١٥٩٩ ، ص ١٤
٢) عيون التواريخ للكتبي ؛ الخزانة التيمورية ، ج ٢٠ ، ص ٨٦ — ٨٧
٣) السلوك ، ١٧٢٧ ، ص ١٢٥
٤) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، ج ٣ ، ص ٦٤
٥) روضة المناظر لابن الشحنة ، على هامش الكامل لابن الاثير ، ج ١٢ ، ص ١٥٢
٦) التبر المسبوك للسخاوي ، ص ٣٦٧
٧) خلاصة الاثر للمحبي ، ج ٤ ، ص ٣٥